

A painting of a city street with a canal and a large Gothic cathedral in the background. The scene is viewed from a low angle, looking down the canal towards the cathedral. The sky is filled with dramatic, colorful clouds in shades of blue, orange, and red. The buildings on either side of the canal are detailed and colorful, with the cathedral being the most prominent feature in the center background.

# لوحات عابرة من غربة

خواطر من سانت بطرس بورغ

د. بديع القشاعة

مجرد لوحات عابرة...



# لوحات عابرة من غربة

خواطر في سانت بطرس بورغ

دكتور بديع عبد العزيز القشاعلة

[Badeea75@gmail.com](mailto:Badeea75@gmail.com)

دار النشر: مركز السيكلوجي للنشر الإلكتروني النقب، فلسطين  
(2022)

---

---

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ  
﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَیَرِی اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ  
وَالْمُؤْمِنُونَ﴾  
سورة التوبة: 105



إهداء

---

اهدي كتابي هذا إلى:

أهلي جميعاً

أبي خصوصاً

عن روح امي

زوجتي وأبنائي

طلابي

---





## اللوحة الأولى

شاب في العقد الثاني من عمره.. عربي بدوي.. أراد  
أبوه أن يكون طبيباً ناجحاً فأرسله إلى روسيا.. إلى  
سانت بطرس بورغ أو لينينغراد سابقاً.. كان ذلك  
في عام 1994.

شاب مطيع لوالديه ويهتم جداً بإرضائهما.. وهو  
مجتهد وذكي.. في بادئ الأمر عندما أنهى المدرسة  
ظن أنه يستطيع أن يتعلم موضوع الجغرافيا  
ويستطيع أن يصبح خبيراً في الأرصاد الجوية..  
هكذا كان طموحه أو حتى حلمه.. ولكن أخبره أحد  
المعلمين ذات يوم أن حلمه هذا لن يتحقق.. ففي  
هذه الدولة مثل هذه الوظيفة لا يمكن لعربي أن  
يصل إليها.. حينها ترك هذا الحلم وتخلّى عنه.

كان قرار والده ان يرسله إلى روسيا للدراسة..  
فسافر إلى سانت بطرس بورغ ليدرس الطب. كان  
ضمن مجموعة طلابية من القطر العربي في  
الداخل.. بدأ يدرس اللغة الروسية في جامعة  
"جرتسينا للتربية".. وسكن في مسكن الطلبة في  
"بليخانافا تري".. وهناك بدأ يتعرف على ثقافة  
جديدة وعالم آخر..

في نهاية المطاف قرر بنفسه أن يدرس علم النفس  
بدل الطب..

\*\*\*

## اللوحه الثانيه

### اللقاء مع الغريه

كانت عقارب الساعة تقارب الثامنة مساءً.. غرفة صغيرة ضيقة بيضاء اللون فيها سرير وطاولة خشبية بنية قديمة وكروسي قديم بصعوبة يقف... ورائحة الأرضية الخشبية تملأ الهواء.. فلم يكن متعوداً على الأرضيات الخشبية وهذا أمر غريب.. ورائحة الخشب قوية وقد ملأت أنفه ودماغه ... كانت الغرفة مضاءة بضوء خافت معلق في وسط السقف.. ولها شباكان اثنان كبيران غريبان مرتفعان للأعلى ولهما طبقتان من زجاج.. في الطبقة الداخلية ظلقة صغيرة تفتح من فوق..

وعلى كل شباك ستار جميل.. قد يكون هذا الشيء  
الجميل الوحيد في هذه الغرفة.. وعلى الحائط  
معلق لوح خشبي بني اللون أيضاً يستخدم كرف..  
ليس عليه سوى علبة ورقية مربعة فارغة.. وعند  
دخول الغرفة يلاقيك باب على جهة اليمين  
لمرحاض صغير وضيق.. فيه حوض صغير أيضاً  
ومرأة.. وليس فيه "دوش".

هذه كانت غرفته حينما وصل إلى مدينة سانت  
بطرس بورغ.. كانت تقع في مسكن الطلبة القريب  
من جامعة "غرتسينا" حيث كان يدرس اللغة  
الروسية.. ويقع المبنى كله على أجمل شارع في  
سانت بطرس بورغ.. شارع "النيفسكي" حيث  
الأضواء والناس والسيارات المكتظة.. أطول شارع  
مستقيم في المدينة.. مليء بالبشر وعلى الجانبين  
تمتد المحلات التجارية وكل شيء هناك مكتوب

بالروسية.. كل شيء بالروسية ولم تكن لافتة  
واحدة على الأقل مكتوبة بالإنجليزية. وبجانب  
المبنى الذي يقطن فيه وكان يسمى "بليخانوف  
تري" كانت أجمل الكنائس وأضخمها وأقدمها..  
كنيسة كبيرة جداً ومرتفعة وتحيطها الأعمدة  
الحجرية المرتفعة في عنان السماء على شكل  
دائري عجيب.. وفي وسط هذه الأعمدة تقبع  
الكنيسة بقبتها الزرقاء العالية.. كانت هذه كنيسة  
"كازانسكي سابور" وهي مقاربة جداً لمسكن  
الطلبة حيث كان يقطن.

رائحة المكان غريبة وكأنها رائحة الغربية.. رائحة  
الرطوبة في المكان مع رائحة الجدران والأرضية  
الخشبية المرصوفة اختلطت فكونت رائحة كأنها  
رائحة الحياة هناك.. روائح عديدة اختلطت  
وتشكلت فأصبحت رائحة تتغلغل إلى أعماق

الأنف فتترك أثراً طويلاً المدى.. لم يعهد لها من  
قبل فهو بدوي تعود أن يعيش في فضاء الصحراء  
يحتضن الهواء الطلق ورائحة العشب والتراب..  
وسماره يعشق لهيب حر الصحراء.. وها هو ذا في  
مدينة تقع قريبة من القطب.. حيث الدول  
الإسكندنافية شمال روسيا.. كانت تدعى لينينغراد  
واليوم أعيد لها اسمها القديم سانت بطرس بورغ

...

\*\*\*

## اللوحة الثالثة

### الحرية

كان الجو جميلاً ومدينة سانت بطرس بورغ بهية  
بجمالها ولها رونق خاص فلمحات المدينة  
الجميلة تبقى في الذاكرة وقتاً طويلاً جداً أو أكاد  
أقول مدى الحياة.. كان الجو مشمساً وصيف  
سانت بطرس بورغ صيف خفيف الظل وحرارة  
الشمس فيه ليست كمثل حرارة الشمس في  
بلادي.. فأشعة الشمس تلاطف الوجوه وتعانق  
الرموش وتشعرك بشعور رائع..

وبدأت الذكريات تعلقو في رأسي وأنا أبتسم وأحدث  
نفسي.. أذكر أول يوم لي وأول صباح لي في هذه

المدينة.. حينما خرجت للمرة الأولى من باب مسكن الطلبة الذي كنت أقطن فيه.. باب لم أعهد مثله باباً من قبل.. خشبي قديم جداً أكاد أجزم أنه من العصور الوسطى.. مرتفع جداً وكأنه صنع لأشخاص عمالقة وقاماتهم طويلة جداً.. طبعاً لم يصنع لمثلي.. يرتفع الباب إلى أن يصل أكثر من مترين ونصف وعرضه كذلك كبير وله ظلفتين تفتح واحدة فقط ومن الداخل باب آخر وله أيضا ظلفتان، تفتح واحدة فقط.. فإذا أراد الشخص الدخول عليه أن يمر من بابين يفصل بينهما نصف متر من الفراغ.. كم أذكر تلك اللحظات التي بدأت أتحسس من خلالها ثقافة شعب آخر ودنيا أخرى.. بكل ما تحمله من معاني.. رائحة الخشب في أنفي لا تزال ورائحة الطقس والرطوبة والتراب.. حتى أشعة الشمس وكأنها الآن

تنكسر على خدي.. يومها خرجت انظر إلى آفاق  
المدينة، شوارعها الواسعة والناس يسرون من  
حولي بأعداد غفيرة رجال، نساء، أطفال يسرون  
في خطوط مستقيمة.. كانت أشكالهم متشابهة،  
وهم يختلفون في أحجامهم فمنهم الطويل الفارع  
ومنهم القصير ومنهم النحيف والسمين.. وقد  
لاحظت شيئاً لم أتوقعه ولم يكن في بلادي..  
لاحظت أن الناس لا يلتفتون حولهم ولا ينظرون  
إلى غيرهم.. توقعت أن ينظر الناس إلى  
فيتساءلون: من هذا؟ ومن أي كوكب هذا؟ فانا  
اختلف عنهم في اللون والبشرة والهيئة، ظننت أنني  
سأكون فرجة... تماماً كما هو الحال في بلادي..  
حينما يمر شخص غريب ترمقه الأبصار من كل  
صوب فلا تتركه في حاله.. نقد وتمتمة وهكذا.. كم  
أدهشني هذا الأمر وكم أعجبني.. عرفت حينها أنني

حر طليق أفعل ما أشاء فلا ينتقدي أحد.. أمشي  
كما أشاء وأتحرك كما أشاء، حتى لو أردت أن أقفز  
سأقفز.. فلن يرمقني أحد بنظراته الحادة وينتقدي  
أو يتمتم بكلمات لاذعة... الناس في مدينة سانت  
بطرس بورغ مشغولون بحياتهم وأحوالهم ولا  
يعينهم ما أفعل.. طبعاً أنا على عكسهم فقد  
جعلت أنظر إلى كل من يمر بقربي فأرسمه في  
خيالي وأنتقده بما أحمل من ثقافة وعادات  
وتقاليد.. من الصعب أن أكون مثلهم.. لا أستطيع،  
وكيف لي ذلك وأنا عربي بدوي تشربت واقعي  
وثقافتني.. فجعلت أنظر إلى المارة ولا زلت أذكر  
أشكالهم ومشيتهم وحركاتهم إلى يومي هذا.

## اللوحة الرابعة

### حكايتي مع اللغة الروسية

كنت أتجول في الشارع وقد أدهشتني تلك البنايات المرصوفة على طول شارع "النيفسكي بروسبيكت"، بنايات تشكلت فأصبحت غاية في الجمال وقد أبدع مهندسوها في رسمها وتخطيطها.. مرصوفة بشكل عجيب وغريب ولكل مبنى شكله الخاص ونقشته الخاصة كتحفة فنية في متحف.. ولكل بناية لون من ألوان الطبيعة.. شيء مذهل.. أخذت أحرق مشدوهاً في تلك الإبداعات ولم أفق من ذهولي إلا على صوت يقول لي بالروسية كلمات لا أفهمها: "تي شتو؟"

أتكروي غلازا " طبعاً كان الصوت بنبرة غاضبة  
وعنيفة فقد صدمته بقوة دون أن أراه.. كان رجلاً  
في العقد الرابع من عمره، طويل القامة عريض  
المنكبين أحمر البشرة وشعره قصير ناعم ويميل  
إلى الصفار.. حدثني وهو يعقد حاجبيه ويكمش  
جبينه وقد ازداد وجهه إحمراراً.. عرفت حينها أنه  
يقول لي "هاي! افتح عينيك " .. فبعد أن تعلمت  
اللغة الروسية علمت أن ما اعتقدته كان صحيحاً.  
قصتي مع اللغة الروسية فيها لقطات فكاهية  
أذكرها حتى يومي هذا.. لقد وصلت إلى مدينة  
سانت بطرس بورغ وأنا لا أعلم من اللغة الروسية  
شيئاً وكنت أتحدث اللغة الانجليزية بمستوى  
ضعيف أيضاً، ولكن يمكنني أن أتدبر أمري.. وفي  
أحد الأيام سألت صديق لي في المسكن يعلم بعض  
الكلمات الروسية البسيطة.. قلت عسا أن أخرج

لأشترى شيئاً.. فقلت له ماذا أقول إن أردت أن  
أشترى خبزاً؟ فقال:

- قل "باتون"
- فنظرت إليه بدهشة وقلت:
- "باتون"! وما معنى هذه الكلمة؟
- فقال وهو يحرك حاجبيه ويتسم:
- ممم.. معناها خبز.. تذهب إلى البقالة وتقف أمام  
البائعة فتقول لها "دفا باتونا"..  
سألته مستطرداً:
- باتون خبز، ولكن ما هي الكلمة الثانية؟
- فأجاب وهو لا يزال يبتسم ابتسامة الشخص  
المتمكن:
- "دفا" يعني اثنان.. "دفا باتونا".. رغيفا خبز..  
أراد طبعاً أن أشترى رغيفين ليكون عندي كفاية  
يومي من الخبز..

وفعالاً تدربت على هذه الكلمات وذهبت إلى  
البقالة القريبة.. كانت البقالات تعمل بنظام  
بسيط.. فكل ما عليك هو أن تقف في الطابور حتى  
تصل إلى البائعة التي ترتدي ملابس بيضاء تماماً  
كلباس الأطباء وتضع على رأسها غطاء أبيض..  
تشعر حينها أنك تتحدث مع ممرضة.. حينما  
تصل إلى البائعة تقول لها ما تريد أن تشتريه  
فتجلبه لك.

وأنا في طريقي إلى البقالة أخذت أردد تلك الكلمات  
كي لا أنساها أو أقول كلمات أخرى غير مفهومة  
فأخرج أمام الناس.. وأنا شخص حساس جداً لا  
أحب الإحراجات.. فأخذت أردد: "دفا باتونا"..  
"دفا باتونا".. "دفا باتونا"..

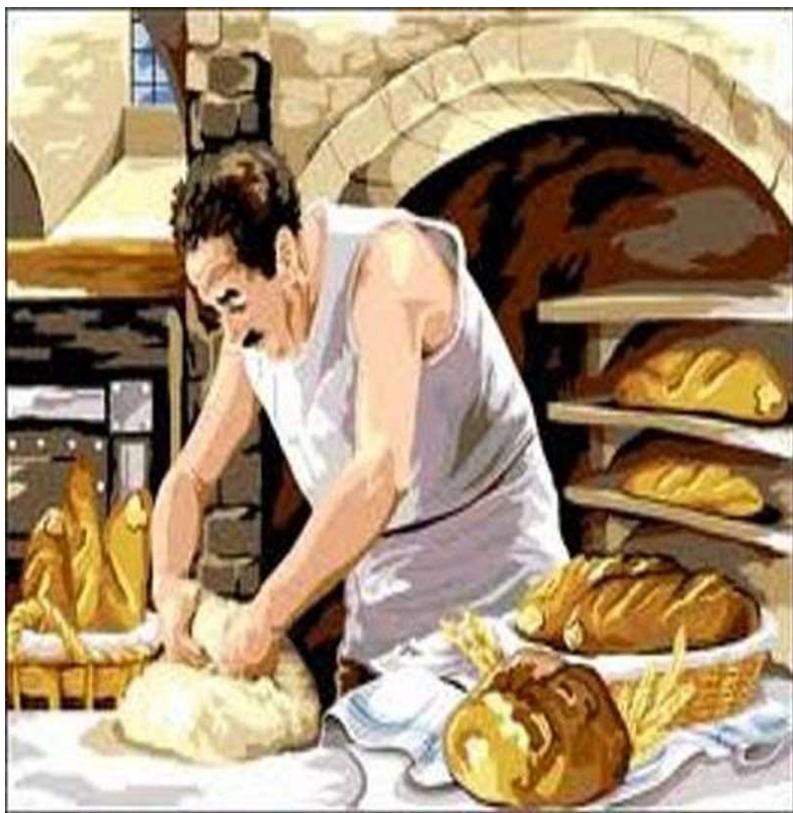
ووصلت إلى البقالة ووجدت طابوراً أمامي فوقفت  
في ذلك الطابور أنتظر دوري.. كان في الطابور نساء

مسنات يقفن ويتحدثن باللغة الروسية وأنا لا أفهم ما يتحدثن عنه إلا أنني كنت مصغياً محاولاً استيعاب لهجتهم الغربية تلك المليئة بالحروف والألفاظ الغربية.. طبعاً كنت أبتسم حينما كانت تنظر إلى إحداهن وكأنها تحدثني وتظني أفهم ما تقول.. فكانت تتحدث إلي بشغف وكأنها تخبرني عن حالها وكانت تحرك حاجبيها ورأسها بحركات عجيبة وبين الحين والآخر تشير بيدها إلى جهة لا أدري ما هي، ولكنني اعتقد أنها كانت تشير إلى مكان ما حدث فيه أمر ما مهم بالنسبة لها.. وكل ما أفعله هو أن أبتسم وأهز رأسي أحياناً.. وقلت في نفسي "لعلها تظني أبكم لا أتكلم..". كم كان هذا محرراً وقد تمنيت أن ينتهي الطابور فيصل دوري وتذهب تلك المرأة البسيطة في حال سبيلها.. وما أن وصلت إلى البائعة التي نظرت إلي بتعابير باردة

جداً وحدثني بسرعة باللغة الروسية فلم أدر ما  
قالت.. ولكني سرعان ما قلت لها:

- "دفا باتونا"

فهزت رأسها وسارت إلى الرفوف الخلفية وأخذت  
رغيفين وأعطتني إياها.. فأخرجت لها ما في جيبي  
من روبلات فنظرت إليها وأخذت منها ورقتين  
وتحدثت بكلمات لم أدركها.. ولكني اعتقد أنها  
قالت "التالي".



## اللوحة الخامسة

### الكنائس

... واصل سيره في شارع "النيفسكي" وهو مستمتع بما يراه من مباني ضخمة ومرتفعة.. ولأول مرة في حياته يرى كنائس ودور عبادة للمسيحيين.. بنايات ضخمة جداً وجميلة من حيث الشكل.. لقد أبدع الروس في بناء الكنائس وفي زخرفتها كما واهتموا بالرسومات الدينية كرسومات ما يدعونه بأنه المسيح وهو مصلوب على الصليب.. في كل زاوية من زوايا الكنيسة تجد مثل هذه الصور والرسومات ورسومات أخرى لأشخاص فوق رؤوسهم هالة ما.. كذلك رسومات لامرأة تحمل

طفلها، وهم يشيرون بذلك إلى مريم عليها السلام.  
وفجأة علت أصوات أجراس.. أجراس الكنائس..  
وكانت هذه أول مرة يسمع فيها هذا الصوت ...



## اللوحة السادسة

### المبورة

حين كان يتمشى في شارع "بليخانافا تري" لفت انتباهه مبنى جميل ذو قبة برونزية رائعة مرتفعة تحملها أعمدة نحتت من الأحجار لا أدري أهى رخامية؟ أم صنعت من الحجر الصلب.. كثير من الأعمدة التي اصطفت على شكل نصف دائرة كأنها أذرع تمتد لتحضنك.. كانت هذه كنيسة "الكازانسكي سابور" وهي من الكنائس الضخمة والمرتفعة في المدينة. جعل ينظر إليها بتعجب وهو منبهر بإبداع الناس وقدرة الخالق سبحانه

الذي أعطى الإنسان هذه القدرة العجيبة وتذكر  
قول الله تعالى: "وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا".

وبينما هو على هذا الحال توجه إليه شخص معه  
كاميرا.. جاءه مبتسماً وهو يتمتم بكلمات لم  
يفهمها.. وكأنه كان يطلبه شيئاً.. ولأول مره يسمع  
أحداً يتكلم الإنجليزية.. قال له: "بليز" .. ومد إليه  
الكاميرا وهو لا يزال مبتسماً وقد ازدادت ابتسامته  
اتساعاً.. وكانت معه على ما يبدو زوجته وهم  
ليسوا من الشعب الروسي فأشكالهم توحى بأنهم  
من بلاد الصين.. الصراحة هو لا يدري أهم من  
الصين أم اليابان أم من كوريا.. هم يحتاجون إلى  
متخصص في هذا المجال كي يعرف الفرق بينهم..  
قال له "بليز" .. "بليز" وهو يمد إليه الكاميرا ويشير  
إلى نفسه وزوجته.. طبعاً فهم أنه يريد أن يلتقط  
له صورته برفقة زوجته.. فأخذ منه الكاميرا وابتسم

له وهز رأسه بالموافقة.. كانت كاميرا جميلة أول  
مره يرى مثلها.. فقال له بكلمات انجليزية قليلة  
وكثير من الإشارات "أين أضغط كي أصور؟"..  
ففهمه وأشار إلى زر في الجهة العلوية للكاميرا..  
ووقف الصيني وزوجته وخلفهما الكنيسة وقد  
ارتسمت ابتسامة تمثيلية على وجوههما والتقط  
لهما صورة جميلة.

\*\*\*

## اللوحة السابعة المترو

كان اليوم ماطراً وكثافة الناس لا تزال في الشوارع..  
وصل إلى شارع "النيفسكي براسبيكت" وهناك رأى  
جموع من الناس وزحام شديد فقال في نفسه  
سأذهب لأرى ما يدور هناك.. وأتفرج مع  
المتفرجين.. وحينما وصل رأى الناس يعبرون من  
خلال بوابة زجاجية إلى داخل مبنى كبير عرف أنه  
مبنى "مترو نيفسكي براسبيكت" وهو القطار الذي  
يعبر من تحت المدينة.. عجيب جداً ورائع هذا  
الاختراع قطار يسير تحت الأرض ممم.. فيقطع  
الأنهار والبيوت ويصل إلى أي مكان تريده في  
المدينة بوقت قصير.. كم عجيب أنت أيها

الإنسان.. أراد الدخول، ولكن المدخل إلى الدرج الكهربائي الذي سينزل به إلى تحت الأرض فيوصله إلى محطة القطار كان مغلقاً ولا يستطيع الدخول إلا "بجيتون".. "الجيتون" هو قطعة معدنية تدخلها في فتحة مخصصة في المدخل فيفتح لك.. طبعاً تغير "الجيتون" اليوم إلى بطاقات إلكترونية. اشترى "جيتون" ودخل.. كان الدرج الكهربائي من الأشياء العجيبة التي رآها في حياته.. على الأقل حينها..

ما لاحظته خلال نزوله على الدرج الكهربائي.. طبعاً غير تلك الصور الجميلة المعلقة على الجدران والألوان الزاهية وصوت فتاة جميل يدوي في جوف المكان. صوت مذياع ودعايات.. رأى أمراً في غاية الروعة.. رأى أن الناس جميعاً.. رجالاً، نساءً، شباباً كلهم يقرؤون.. كل شخص يحمل بين كفيه

كتاب ويقرأه.. إلا هو لا يحمل شيئاً.. فقال في نفسه "أكاد أجزم أنني الوحيد في المترو الذي لا يحمل كتاباً يقرأه.." بصراحة شديدة شعر بالإحراج وأصدقكم القول فإن الشخص الوحيد الذي كان يلتفت بنظره يميناً ويساراً وإلى الناس كان هو.. فلا يدري ماذا أفعل؟ وفجأة رأى شاباً يقف في آخر الدرج الكهربائي ويحمل كوماً من الصحف في يده اليسرى ويمد بيده اليمنى الصحيفة لمن يريد.. فقال في نفسه لقد جاء الفرج.. وأخذ واحدة وانضم إلى جموع القارئین.. ولا يزال صوت تلك الفتاة يدوي في أذنه..

\*\*\*

## اللوحة الثامنة

### الحمام

في اليوم الثاني في سانت بطرس بورغ.. كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة والنصف من منتصف الليل.. سكون شديد هبط على المكان يقطعه صوت خافت من بعيد لإطارات السيارات وهي تسير مسرعة بين الفينة والفينة في الشارع القريب من المسكن "بليخانافا تري".. كان يحاول النوم، ولكن عبثاً يحاول.. يتقلب في فراشه ذات اليمين وذات الشمال.. النوم يهرب منه ويأبى أن يأتي.. والنعاس يجافيه.. ماذا سيفعل فكلما حاول النوم زاد أرقه شدةً.. فقرر أن يكتب رسالة

لوالديه.. اعتدل في فراشه واخذ ورقة وقلم كانتا على طاولة خشبية قديمة قريبة من سريره.. وبدأ يكتب..

أبي وأمي الغاليين أتمنى أن تكونا بصحة وعافية.. أما بالنسبة لي فالحمد لله أموري جيدة.. وها أنا أتأقلم مع جو المدينة الرطب وبرودة الليل.. أمس اقتنيت "جاكيت" جديد.. الجو في الليل بارد جداً لذلك اضطررت لاقتنائه.. سأكتب لكم شيئاً مضحكاً حدث معي أمس.. كما تعلمون فإن غرفتي صغيرة وليس فيها حمام.. بل مرحاض وحوض صغير.. فذهبت إلى المسؤولة كي أخبرها أين يمكن الاستحمام.. فأعطتني رقم هاتف وقالت لي: "عليك أن تتصل وتحجز دور للاستحمام".. لقد ضحكت حينها واستغربت الأمر بشدة.. ولكن لا مفر.. اتصلت في حينها ورد على صوت: "ألو

زدرازفوتي" .. بالروسية مرحباً.. فقلت له:  
"زدرازفوتي.. يا ختشو زاكازات دوش" .. بالعربية  
يعني أريد أن أحجز حمام.. وهكذا دار بيني وبينه  
حديث وأعطاني موعد وساعة وعنوان.. كان  
المكان يبعد عن مسكني سيراً على الأقدام عشر  
دقائق.. فذهبت هناك وأخذت معي لوازم  
الحمام.. وسار كل شيء بصورة طيبة، ولكنها  
مضحكة.. هه..

هذه هي حكايتي مع أول حمام في سانت بطرس  
بورغ.. لا أنساها أبداً..

أبي وأمي أدامكم الله وحفظكم..

وهكذا انتهى من كتابة الرسالة لوالديه.. حينها  
شعر بثقل جفنيه ومداعبة النعاس.. فارتخى في  
فراشه وغط في نوم عميق..

## اللوحة التاسعة

### المديق

كانت الساعة الثامنة صباحاً.. الجو هادئ جداً.. وهو لا يزال نائماً وكانت رائحة الخشب والرطوبة في غرفته تزيده خمولاً.. لقد كانت ليلة صعبة ولم ينم جيداً .. أصابه الأرق والتفكير.. كان يتذكر والدته ووالده وإخوته.. أصدقاء عمره الذين تركهم وكل حياته السابقة.. وهو الآن يغط في نوم عميق.. حتى أنه أصبح يشخر ولم يكن في السابق يفعل ذلك.

دق.. دق.. دق..

دق باب غرفته بلطف.. ولكنه لم يسمع فالنوم مسيطر عليه..

دق.. دق.. دق..

عاود القرع على الباب مرة أخرى.. حينها بدأ يتحرك في فراشه وفتح عينيه ببطء وكانت الغرفة مظلمة.. فالشبابيك مغلقة والستائر تمنع ضوء الصباح.. فرك عينيه وتحرك من فراشه وحك رأسه.. وجلس..

"ترى من هذا؟ قد تكون عاملة النظافة؟ ومن غيرها.. " حدث نفسه وهو يقف من فراشه ويتجه إلى الباب بترنح وقد أدخل يده اليسرى في ظهره وأخذ يحكه..

دق.. دق.. دق..

- نعم.. نعم.. "دا".." "كتو تام؟"

وفتح الباب وهو يحاول الوقوف بثبات وقد أزعجه الضوء الذي انبعث من الخارج فاخترق عينيه..

- "السلام عليكم.. كيف الحال؟" جاء صوت من الخارج.

فرد وهو يصلب طوله..

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

كان يقف على الباب شاباً متوسط الطول مبتسماً... كان شعره الأسود ممشطاً إلى الخلف مدهوناً بالزيت.. لون بشرته تميل إلى السمرة.. يرتدي قميص أبيض وبنطالون كحلي.. ليس بالسمين وليس بال نحيف.. يمتلك ملامح البساطة والطيبة..

- "أنا طالب أسكن معك هنا في هذا المسكن" قال الشاب وهو يبتسم ويسلم..

- "أهلاً وسهلاً.. نعم.. نعم تفضل أدخل"

قال وقد أربكه الأمر واختلط صوته بخشونة من يفيق من النوم أو كالذي لم يتكلم مع أحد منذ فتره..

علا صوته ودوى صدى قهقهته عالياً في أرجاء الغرفة.. وكان يضحك من كل قلبه... وأحياناً يتطاير رذاذ لعبه دون أن يسيطر عليه وهو يضحك.. حينما كانا يتداولان أطراف الحديث وما حدث معهم من طرائف منذ مجيئهم إلى المدينة.. " سنكون زملاء في هذا المسكن.. أنت تعلم أن مجموعتنا مكونه من عشرة طلاب.. أنا وأنت فقط العرب والباقي من جنسيات أخرى.. كوريين وأتراك ولا أدري من أيضاً.. "

"متى سنبدأ التعليم؟"

"اليوم الأحد وهو يوم عطلة هنا في هذه الدولة.. عطلة رسمية.. فهي دولة مسيحية.. القليل من

المسلمين يعيشون في هذه الدولة.. هذه أصلاً  
دولة ملحدة... الإتحاد السوفييتي قضى على  
المسلمين في هذه البلاد" ....  
ثم أكمل وقال " ما علينا.. غداً سنبدأ أول يوم  
تعليم.. "  
"سنذهب معاً في الصباح"..  
"نعم أكيد.. جهز نفسك الساعة الثامنة  
والنصف.. فالتعليم يبدأ الساعة التاسعة"..  
" سأدعك الآن ترتاح.. وأنا سأذهب فإني أنتظر  
اتصالاً هاماً.. سلام.. "  
وخرج الشاب من الغرفة.. وُسمع صدى الباب  
وهو يُغلق..



دق.. دق.. دق..

" تي تام؟" بصوتها الأَجَش نادت السيدة العجوز  
المسئولة عن المسكن وهي تطرق الباب. وتعني  
بالعربية هل أنت موجود؟

كانت سيدة في السبعين من عمرها تدعى إيرينا  
إيفانوفنا.. نحيلة بعض الشيء.. شاحبة.. شعرها  
الأبيض القصير تدلت منه خصلة بين حاجبيها  
فأعطاها ذلك شكلاً خاصاً.. كانت عاقدة الجبين  
عبوسة..

"أنت !!" صاحت مرة أخرى من خلف الباب  
بصوت بدا فيه الانزعاج..  
فُتح الباب..

"زدرازفوتي إيرينا إيفانوفنا" رحب بها بالروسية..  
"زدرازفوتي موي داراجوي" بالعربية أهلا بك يا  
عزيزي.. قالت إيرينا إيفانوفنا كلمتها دون ابتسام..  
وأكملت ... " أو تيبيا يست تيليفون" ثم استدارت  
وغادرت المكان..

وقف برهةً يفكر في الأمر.. "ترى! من المتصل؟"  
حدث نفسه فهو لم يعط رقم الهاتف لأهله بعد..  
وأغلق الباب وسار متجهاً إلى غرفة المسئولة  
حيث الهاتف.. كان يفكر خلال سيره في الممر  
الطويل المنار بإضاءة خافتة والذي يتصل في  
نهايته بغرفة المسئولة والتي تبعد عدة باردات من  
غرفته.. كان صوت شبيه وهو يجره على

الأرضية الخشبية يصدر صوتاً غريباً.. كصوت الحشائش الجافة عندما يداعبها الهواء بقوة.. عجيب أمر هذا الشبشب، لقد اشتريته أمس من بائع متجول كان يقف على رصيف شارع "النيفسكي براسبيكت" بالقرب من المتجر الكبير "جاستين دفور".. كان يضع بضاعته القليلة على الرصيف وهو ينشد بصوته الجميل أغنية بدت رومانسية جداً وجميلة.. وقفت حينها أصغي إليه باستمتاع فصوته أطربني رغم أنني لا أفهم ما يقول.. كان يغني بحماسة ومن قلبه.. حتى بدت الأوردة في عنقه من شدة حماسه.. كان المارة يقفون برهة ينظرون إليه فيبتسمون ثم يكملون سيرهم.. أما أنا فوقفت متسماً في مكاني مصغياً لأغنيته.. كان شاباً روسياً في الثلاثين من عمره.. بدا عليه الفقر من لباسه، ولكنه كان نظيفاً.. كان يغني وهو

ينظر إلى الأفق البعيد وقد لمعت عيناه  
الزرقاويتين.. وعندما انتهى من أغنيته توجه إلي  
ببصره وابتسم ثم قال لي " هذه بضاعتي هنا "  
وأشار بيده إلى الأسفل.. ثم أخرج شيشباً وقال "  
أتريد هذا الشيشب يا سيدي؟ سينفعك "  
وأعطاني إياه.. " بثلاث روبلات " قال وهو يبتسم  
أيضاً.. فأخرجت من جيبي ثلاث روبلات دون تردد  
واشتريته وسرت في طريقي ...

وصل غرفة المسئولة القابعة في آخر الممر.. غرفة  
ضيقة معتمة تفوح منها رائحة الرطوبة والخشب  
مختلطة برائحة السمك المقدد التي كانت تحبه  
العجوز.. التي أعطته السماعة..

"الو.. السلام عليكم.. "

"وعليكم السلام عزيزي " صاح صوت بحماسة من  
الجهة الأخرى.. "أنا صديقك " ..

" أهلا بك " .. تكلم بصوت هادئ مستغرباً..

" ماذا تفعل؟ "

" لا شيء.. أحضر بعض الطعام" ..

" دعك من هذا وتعال الآن "

" الآن " سأل مستغرباً ذلك..

" نعم أنا موجود عند ميترو " جورجوفسكيا "

سأنتظرك عند المدخل.. لا تتأخر.. سلام" ... قال

كلماته هذه وأقفل السماعة..

أراد أن يقول له أن الساعة تجاوزت التاسعة مساءً

وهو لا يحب أن يخرج في مثل هذه الساعات..

ولكنه أقفل الخط.. لم يعطه فرصة للكلام..

" جورجوفسكيا! الآن في هذه الساعة " كلم نفسه

بحيرة ...

\*\*\*

## اللوحه الحادي عشره الشهرة

الجو باردٌ ومطرٌ خفيفٌ غطى ملامح المدينة..  
كانت أضواء النيفسكي براسبيكت تنعكس على  
رصيف الشارع الذي رسم لصفة جميلة كالمرآة  
انعكست فيها ظلال المارة.. وخطوات الناس  
تشكل صوت جميل يتلاءم مع صوت قطرات  
المطر.. لقد تسارعت خطواته وهو يتجه إلى  
الميترو وقد وضع يديه في جيوب جاكيتته وانكمش  
من البرد..

وصل إلى البوابة الرئيسية للمترو واخذ ينفذ عن  
جاكيته بقايا المطر.. وبينما هو كذلك وإذ  
بشرطيين اثنين يتوجهان إليه.. كنا شرطيان  
ضحمان جداً وبدا لباسهما مثل الدروع.. أدوا  
التحية وقالوا:

- "زدرازفوتي مالادوي تشيلافيك " مرحباً أيها  
الشاب..

فنظر إليهما وقد كست ملامحه الدهشة.. وقال:  
- "زدرازفوتي.."

أكمل أحدهم بصوت صارم قائلاً:

- "أوراقك لو سمحت!"

فأجاب وهو يمسح المياه عن جبينه:

- "أوراقى؟ ما المقصود؟"

- "جوازك.. إقامتك.. ماذا تفعل هنا؟"

فتنحج وبلع ريقه.. هذه أول مره يحدث مثل هذا الأمر في سانت بطرس بورغ.. " كنت أعتقد أني قد ارتحت من ذلك.. ففي إسرائيل هذا الأمر كان يضايقني.. وهنا أيضاً؟" حدث نفسه وهو يحاول أن يخرج جواز سفره من جيبه..

- " أنا طالب " قالها وهو يمد جواز السفر..

أخذ الشرطي الجواز وبدأ يقلبه.. " مممم ...

حسناً.. أنت من إسرائيل؟"

- "نعم"

- "عربي؟"

- نعم أنا عربي..

- "عرب في إسرائيل!! ممم ... حسناً.. شكرا لك أيها

العربي ..."

قال الشرطي جملته وهو يسلمه الجواز ويشير إليه

بأنه يمكنه الذهاب ...

## اللوحة الثانية عشر

### العازف

كان يسير باتجاه المترو وأثار الدهشة تكسو وجهه..  
والأفكار تجول في رأسه.. فقطع تفكيره مشهد لشيخ  
في الستين من عمره يقف أمام الميترو.. كان منتصباً  
ويقف في زاوية بجانب الباب الرئيسي بعيداً عن  
المطر.. يحمل في يديه "كمنجة" قديمة صفراء  
اللون، ولكنها جميلة، يعزف عليها بمهارة.. كان  
صوت عزفه حزين جداً وينم عن ألم شديد وكأن  
الألحان تتكلم عن حياة بائس حزين.. يعزف وهو  
ينظر إلى الناس بعينيه الغائرتين في رأسه وسحنته

التي كستها التجاعيد.. كان متشبهاً بآلته الموسيقية  
كالذي يتشبث بحبيبته حين غروب الشمس وساعة  
المساء.. والناس يمرون من أمامه غير مكثرئين به..  
كان يضع قبعته على الأرض أمامه ليضع فيها من  
يشاء من الناس ما يشاء من النقود.. كانت قبعته  
فارغة وليس فيها حتى ولو روبل واحد.. كم كانت  
قبعته هذه تعيسة وحزينة..

نظر إليه وقد اعترته الشفقة عليه فأخرج روبلاً  
حزيناً من جيبه ووضعه في القبعة ثم أكمل طريقه  
إلى داخل الميترو.. وصوت المذياع في داخل  
المحطة يدوي ناشراً للناس مختلف الدعايات  
والإعلانات..

وقف على السلم الكهربائي الذي يهبط به إلى  
محطة الميترو تحت الأرض.. يقولون إن محطة  
الميترو "نيفسكي براسبيكت" هي من أعمق

محطات الميترو في العالم.. أخرج من جعبته كتاب  
صغير وأخذ يتصفحه وهو يهبط إلى الأسفل.. ولا  
يزال صوت المذياع يدوي في المكان ...



## اللوحة الثالثة عشر

### الكادحون

توقف المطر.. وعلى ضجيج عجلات " التروماي " وأبواق السيارات وخطى العابرين بين الشوارع من مكان إلى مكان ومن زاوية إلى أخرى بين المباني القديمة الرثة التي تعبت من عوامل الطبيعة القاسية وهي كالقلاع صامدة في وجه المطر والثلج والصقيع.. كان " التروماي " قديماً جداً من صنع الإتحاد السوفيتي سابقاً وضجيج عجلاته تخلخل العظم... وفيه وقف الناس مشدوهين وكأنهم لا يلوون على شيء وينظرون في الأفق.. يحمل كل منهم

ذاكرته الكئيبة على كتفيه... وفي وسط هذه الضوضاء تعلقو ترانيم جميلة لشاب يقف في ناصية الشارع يستجدي عطف المارة "بروبل" أو حتى "كابيك".. وأخر يقف على محطة الحافلة المهترئة يغني وينشد وفي يديه كمنجته العتيقة.. وعلى حافة النهر هناك حيث تزداد الأشجار ظلمةً ويزداد الهدوء بعض الشيء يقف رجل عجوز على رأسه قبعة من الشعر دائرية وبين شفثيه غليون ينفث الدخان وهو ينظر إلى لوحته التي امتلأت بالألوان الزيتية وهو يحاول أن يرسم الطبيعة الخلافة والمشهد البعيد الذي يعبر الجسر حيث يتكاثف الضباب وأوراق الشجر وبقايا الطين ..

بين هذا الضجيج عبر الشارع حيث خرج من الميتر متجهاً إلى المبني القرمزي حيث كان ينتظره هناك

صديقه.. عبر الشارع بسرعة وهو يحاول أن يتلاشى  
الوحد الذي أصاب بنطاله وحذائه ..  
... في الطابق الأول من مبنى قديم مدهون باللون  
القرمزي وعلى جدرانته نحتت أشكال وصور جميلة  
لأطفال يحملون الكؤوس والزهور على رؤوسهم وقد  
أحاطت الرطوبة زواياه الخارجية وفاحت رائحة  
العفن منه.. المبنى يبعد عن محطة الميترو  
"جوركوفسكيا" أقل من خمسين متراً.. وفي زاوية من  
زوايا المكان حيث الضوء خافت يشبه ضوء الشموع  
ويميل إلى الحمرة..  
جلس الاثنان يتحادثان بهدوء وروية .....

لقطات ولوحات عابرة ...

